من هُنا وهُنالك

فى جبـــال سويسرا

لم تسر بنا أقدارنا هونا ، وقد تتريث بنا فى مطلع الفجر حيناً فتسمعنا نشيد الحياة الجميل . ثم يجدُّ الجد فتستحثنا فى راحة الليل وفى هجير الحرور ، وتنذر الذين يصبرون أو يتمهلون بالتخلف والحرمان ، وتبشر الجادين والمتوثبين ، بما نهضوا له من ثمر ، وقد نشق على نفوسنا فتشكو :

مُعَاوى إنّنَا بَشرٌ فأسْجِحْ
فلَسْنا بالجبال وَلاَ الحديدَا

وليس أظلم لنفوسنا من أن تدعوها الحياة ، فيكبحها واجب أو يثقلها ثقل من أثقال الفكر ؛ فان حياتنا جزء لا يتجزأ من دورة الفلك ، وهى تشقى ألا تجاوب دعاء الكون . . . فمن عاش متخفياً عن الشمس التى بزغت لبهجته وحياته ، ومن سهر متجافياً عن النوم الذى أقبل به الليل لنضوجه وصفائه ، ومن تصامّت أذناه عن سمع الربيع ، ومن غضّ الطرف عما شاع فى آفاق هذا الكون من جمال، عاش ظالماً لنفسه ، ولم يُغْنِ شيئاً .

وربما كانت سبل العيش فى كل مكان ميزاناً لما آمن به الناس من دين وخير ، وترى الذين تدبروا خلق السموات والأرض ، قد آنسوا جمالا وإلٰهاً، وترى الذين انطووا على أنفسهم قد آنسوا فى حياة الانسان أغواراً وكنوزاً من الجمال وبحثوا فى أنفسهم عما أوْلتهم الطبيعة من جمال وكمال ، وعسى أن يكون مثل الله الأعلى أن ينظر الناس فى خلق أنفسهم وفى خلق السموات والأرض جميعاً حتى يبلغوا ما آتاهم الله من نعيم الحياة ، ولا يلقوا سدّاً بين أنفسهم وبين ما فى قلب الحياة من دين، وجمال وخير .

ولم يجز نفسى جزاء أطيب من أن تخرج حيناً من كل قيد ، فلا يكون لعمل ولا لأمل عليها من سبيل ، وأن تستلقى فى رأس جبل فى أحضان الطبيعة والحياة ، وأن تجد بين ذراعى الطبيعة والحياة رفقاً كرفق الأمومة ، وسلاماً يخالج أعماق ضميرى ، وأن يشتمل على صفاء لا يثيره صوتٌ ولا فكرٌ ، وأن أنسى الزمان والمكان من حولى .

وسماء وادى انجادين فى سويسرا إذا صحّ النهار زرقاء ناعمة رفيقه ، ليس فى صفحتها أثر لشئ فى ناحية من نواحى ، سوى قرص الشمس الوضاء الذى ينفذ ببياضه الساطع فى رءوس الصخر ، وفى سروج المراعى الخضر ، ويجعل ظلال شجر الغابات بين ظل سهل ، وبياض يسير ، ولا يذهب بآثار الفجر مرة واحدة بل يبقى حتى ضحى النهار على ندى الصبح وصقيع الليل ، وتنظر فى عين الشمس فلا يرد شعاعها عينيك ، وكأنها بزغت لكل كائن فرد ، وجاءت للكون جميعاً .

وسلام الطبيعة فى ضحى النهار كسلام الفتاة الجميلة السعيدة فى مطلع ربيعها ، والتى لا يتعجلها حرمان وحاجة ، فهى نؤوم الضحى ، وهى تبدل ثياب الليل هوناً ، وهى تغنى فان نظرت إليها عينٌ بشَّت لها وابتسمت .

سرت إليها بحبى وعصاى لا أسمع إلا خطوى ويقظة ما يطنّ فيها من الهوام ، وما يتجاوب فيها من الطير وما يجرى فيها من السيل ، واستسلمت من وادٍ ذى ذرع إلى صخور وادٍ غير ذى ذرع ، ومضيت حتى صرت ظلاً كظل ما حولى من الصخر ، وحياة ساكنة كحياة ما حولى من الشجر ، وولیت وجهى مصعداً إلى رءوس صخر محترق كلون التراب . وبينا أنظر كل شئ حولى قد ملأت حياتى بنسيم وضياء وصمت ووقفت متهادناً قد مددت عصاى وراء عنقى ، وأسندت لطرفيها يدى كأننى راع ، وثبت من باطن الصخر النائى العالى ظباء كلون البقر كانت آمنة ناعمة بضحى الشمس ، فاستوحشت من ظل إنسان . . . ووقفت كبراها تنظر ما أدبر وتنتظر أن يعجل صغارها فتتوارى فى ثنايا الصخر ، ثم ولت فراراً بعدهن . . . لم أصب بعدهن متاعاً أجمل من أن أمضى نأرق إلى حيث اختارت الظباء فهن أعلم دليل بأجمل موضع فى الجبل ، فسكنت حيث سكنت ساعة من نهار انطوت على نعيم كنعيم الخلود

ولم أجد للسعادة سبيلا سوى الحياة ؛ فما يغل الحياة من عقم وركود وذل و إعياء وضيم مانع للسعادة والحياة جميعاً . وما يرسل ينابيع الحياة فى النفس كالشباب والحب . وفى النبت كالربيع والزهر ، وفى الصخر كالنسيم والغيث ، مرسلٌ للسعادة والحياة جميعاً . وحيثما نبض قلب بالحياة ، تفجرت من حوله آيات بينات من متاع الحياة والجمال . . . ويوم نمشى فى الأرض أحياءً سعداءَ طلقاءَ ، تتزود أرواحنا بهمة النحلة التى ترتشف من

أعطاف الزهور، شهى الحياة . . . فمن عسى أن تجد نفس فى مواطن الظباء . . .

استقبلت هذه الصخور صخورٌ مثلها من جانب الطود الأيمن بنى فى عنقها منزل أبيض عالٍ لن أبرح هذا الجبل حتى أسمو إليه . . . وما أدرى أتهجرنى ظباؤه . . . بينى وبين هذا المنزل العالى دارٌ لفنان وقفت فيها وسط النهار حتى رفع ما بينى وبين الفنان من غربة . . . ثم كاشفته أننى جئت هذا الجبل لأعلم ما يتعلمه بنات الأغنياء من السويسريين والأجانب فى معهد الجبل ، فصمت حيناً كدأبهم إذا أجابوا ، ثم نفذ خلال هذا الصمت صوت امرأته العجوز كالوتر الدقيق الرفيق تغنى أغنية ألمانية :

صَبِيَّتى ياصَبِيَّة
أنتِ غَايَةٌ فى الجَمَالِ

ثم قالت :

ويْحى عليك وويحى منك يا رجُلُ

فابتسمت وقلت لها : « لا عليك ! فقد كبرت ثم شببتُ عن الهوى . »

فأشارت بيدها إلى نفسها وقالت : « أنا جميلة . » ثم إلى رجُلها وقالت : « هو أجمل منى . » ، ثم إلىّ وقالت : « وأنت أحسننا جميعاً . »

ثم انطلقت إلى المنزل الأبيض العالى ، فلقينى مديره بأدبٍ أصيل لا تكلف فيه ، ومضى يبين لى قاعة عريضة مدورة قامت سقفها على عمد بيض ودارت نوافذها فى جبهة البيت ففاضت بياض النهار الناصع ، وأشرفت على مروج خضر ، وأسلمت البصر إلى جبال التيرول القائمة بين النمسا وسويسرا.

فى هذه القاعة يسمر الفتيات ويغنين ويرقصن ويعزفن ويمثلن ، وعن يمين هذه القاعة غرفٌ تنامُ فيها الفتيات ، وعن يسارها حجراتٌ يتعلمن فيها ما يعلم هذا المعهدُ من معرفة، فينمى فى الفتاة ملكة المعرفة وملكات الفنون والرياضة ، وتعيش كأنها فى أسرة تأكل مما يأكل معلموها وتصطفيهم ويصطفونها وتنمو بينهم مودة وثقة ، وتتعود الجهر بما تجدُ ، ولا تدبر فكراً فى الخفاء ، وتتعلم فى هذا المعهد الأعزل ألا تؤمن بالله المال وحده وتؤمن بالصدق والوفاء والبساطة ، وتشرف على النظام والطعام وترتب فراشها مرة كل أسبوع .

كلما بيّنَ لى مدير هذا المعهد جانباً من معهده راعتنى نظافته ، وما ملأ حجراته من سلام وحب ، وأعلمنى أن ذلك المعهد قد بناه أهل القرى المتناثرة فى أحضان الوادى ، وجاءته فتيات من كل مكان لينشأن فى ذلك المحيط الجميل

الذى أحاطت به الطبيعة وحدها من كل مكان . . . وبينا ألقى بصرى معجباً بما أرى أقبلت فتاة بثياب الرياضة القصيرة وكانت بضّة غضيض الطرف تفيض منها الحياة ، وابتسمت تحيى مديرها وتحيينى . . . ثم سرت وراء مديرها أتنقل من أثر إلى أثر حتى أقبل ، ففتح باباً مغلقاً . فاذا نحن بين يدى هذه الفتاة الجميلة ، فمددت إليها يمينى ثم خاطبتها بالفرنسية،فتلوت عنى بدلال جميل ، وهزت يمينها الرطبة تردُّ عن نفسها حرجها ألا تفهم لغتى . فأسعفتها بما أعرف من لغتها وقلت لها أأنت هنا سعيدة ؟ فشرعت فى عينى نظراً ليس فيه سوى قلب إنسانى وقالت نعم،نعم. وبادلتها ما انطوت عليه نفسى من إنسانية وخير وقلت لها قولا جميلا، ثم مددت لها يمينى أستودعها فضغطت على يمينى حتى سرتْ نفسها فى نفسى .

ويسرى النعيم والسعادة بين الناس بالحياة والحب مسلما يسرى بينهم الشقاء والعلل بالبغضاء والمرض . فكيف يولد الحب وترعى حرمات الحياة بين الناس :

« مَنْ أبوهُ ومنْ أمهُ

« ذلك شأنٌ غير يسير ، ولكنى أنبؤك بنبئه : يوم ولدت أفروديت حفلت الآلهة حفلا ، وكان من بينهم عروة ابن الحكمة ، فلما حضر العشاء قدمت امرأة فقيرة تسأل المحتفلين إحساناً لأن المائدة كانت ذات خير عميم ، ثم جلست لدى الباب ، فشمل عروة بنكتار (لأن النبيذ لم يكن معروفاً يومئذ) ، وخرج إلى حديقة زيوس نأثقله السكر فنام . فسولت للفقر نفسها وحاجتها أن تنسل غلاماً من عروة ، فضاجعته وحملت منه الحب ، فشبّ الحب مولى وتابعاً لأفروديت لأنه ولد يوم عيد مولدها ، وأوتى قلباً توّاقاً إلى الجمال ، وكانت أفروديت ذات جمال . »

أراد أفلاطون أن يبين أن الانسان فقير إلى الجمال والحكمة ، وأنه لا يبلغهما إلا بالحب الذى يقف عروة بيننا وبين ما فى أنفسنا ، وبيننا وبين ما فى العالم من جمال ، فجاء بالحب من أمّ سائلة فقيرة . ولو نظر إلى ما يقوم بين الناس من سعادة وعدل لرأى للحب أمّا عزيزة غنية وهى الانسانية. فان نمى الناس فلا تنمو ذئابهم وحملوا فى قلوبهم الايمان بالانسانية وحرمات الحياة تنمى من حولهم العدل والاحسان . وجاء العدل والاحسان بالحب والمؤاساة .

على حافظ